

تعليمية مادة التربية الإسلامية وفاعلية الخطاب الديني
Educational Islamic education
and the effectiveness of religious discourse

طالب دكتوراه أسامة بن عبد الله

قسم علوم اللسان، كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر -2-
Prof.oussama19@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/05/25

تاريخ الإرسال: 2019/10/25

الملخص:

تعتبر تعليمية مادة التربية الإسلامية من أهم المواد المقررة على المتعلمين في الطور التعليمي الابتدائي والمتوسط؛ فهي بمثابة خطاب ديني بناءً وممنهج ومدروس؛ من شأنه أن يعدّل ويقوّم سلوكيات ومعارف المتعلمين ويزودها؛ وذلك إن اتسمت هذه العملية التعليمية بما هو مطلوب منها من دقة وانضباط ومنهجية ، وتجمع هذه العملية بين عناصر تواصلية تتمثل في: المعلم (مرسل) والمتعلم (مرسل إليه) والمحتوى التعليمي (رسالة) في إطار تربوي تعليمي. ومن ذلك نروم في هذا البحث الوقوف عند أهم المفاهيم المرتبطة بتعليمية الخطاب الديني في المدرسة الجزائرية، من منظور أنه خطاب تواصلية تعليمية، وعرض المفاهيم المتعلقة بهذه العملية في أطر لسانية تداولية، باتباع المنهج الوصفي، وهذا ما يجعلنا نطرح السؤال التالي: ما المقاصد التي يطررها الخطاب الديني التعليمي في إطاره التواصلية والتداولية؟

الكلمات المفتاحية: الخطاب الديني؛ التربية الإسلامية؛ التعليمية؛ التواصل؛ التداولية.

Abstract:

Educational Islamic education is considered one of the most important subjects prescribed for learners in the primary and intermediate educational stage; it is a constructive, systematic and thoughtful religious discourse that would modify and provide learners' behaviors and knowledge and provide

them, and that this teaching process is characterized by the accuracy, discipline, and methodology required. .., and this process combines communicative elements that are: the teacher (sender) and the learner (receiver) and educational content (message) in an educational framework.

From this perspective, we look at the most important concepts related to the teaching of religious discourse in the Algerian school, from the perspective that it is an educational communication discourse, and present the concepts related to this process in the frameworks of pragmatic linguistic following the descriptive approach, and this makes us ask the following question: What are the aims of religious educational discourse in its communicative and pragmatics?

Keywords: Religious Speech, Islamic education, Didactics, Communication, pragmatics

مقدمة:

يعتبر الخطاب الديني من أهم ما يتلقاه الإنسان في حياته اليومية؛ بحكم أن الدين يأخذ حيزا كبيرا من اهتمامه؛ والذي يطرح مواضيع مختلفة؛ تتعلق بالمعاملات والقيم والضوابط وغيرها؛ عبر وسائط متعددة؛ تتحدد بقدرة الشخص المعرفية والعقلية، وماهية هذه الوسائط، وسبلها، ومصداقيتها، فمنهم من يكون متلقيا للنص الديني الإسلامي من النص القرآني، أو عن أحاديث الرسول، أو من الكتب الشارحة له، أو من كتب العلماء، أو من أهل الدين كالإمام والمفتي، أو المعلم والأستاذ في المؤسسات التربوية...، وتكون فيه "العلاقة بين القارئ والنص ليست علاقة تقابل وتضاد، وإنما يكون النص جزءا من وعي القارئ، وجزءا من بنية تفكيره"¹، هذه الخطابات التي تأخذ في مجملها حيزا كبيرا في تفكير الكثير من البشر لها وقعها الخاص بها، ويتباين الفهم فيها من شخص إلى آخر على حسب ما يعرف بمستويات التلقي، الذي يكون وفق دوائر كما تحدث عنها "الزركشي"².

الدائرة الأولى: تفسير النص بنفسه، انطلاقا من وحداته المتكاملة.

الدائرة الثانية: يفتح النص على غيره من النصوص .

الدائرة الثالثة: يفتح المتلقي على القراءات التي أنجزها القارئ التاريخي

المعاصر للنص.

الدائرة الرابعة: وهي الأخيرة وفيه يفتح الخطاب على متلقيه الذي خاض

الدوائر السابقة وحصلها

ينطلق الخطاب الديني الإسلامي من القرآن الكريم كمصدر، ثم إلى النص الشارح الذي يكون -بحسب الترتيب- أحاديث الرسول ثم الصحابة والمفسرين، لينفتح بعد ذلك على قراءات أخرى جديدة ومعاصرة، وفي الأخير يكون المتلقي أمام خطاب ديني؛ مرّ بدوائر تواصلية من مرحلة إلى مرحلة، وهنا قد يتحقق التلقي المناسب والمقصود وقد لا يكون- عند الشخص العادي - لاعتبارات كثيرة، لكن الأمر يظهر معقدا عندما نجد بأنّ الخطاب الديني عبارة عن تراكم خطابي؛ بمعنى خطاب فوق خطاب، فمثلا النص القرآني له سياقات خاصة به في ما يعرف بأسباب النزول، والأخذ منه من أجل استعمال ثاني في نظام خطابي معين يقوم على سياق آخر، قد يكون مشابها للسياق الأول، أو قد يكون مخالفا، فنحدث بذلك في الخطاب الديني عن سياقات بدل سياق واحد يتعلق **بالاستعمال**.

ينبني الخطاب الديني على مرجعيات مختلفة في بعده التواصلية اللسانية والثقافية، ويكون بـ "تبادل أدلة بين ذات مرسله وذات مستقبله، حيث تنطلق الرسالة من الذات الأولى نحو الذات الأخرى، وتقتضي العملية جوابا ضمنيا أو صريحا عما نتحدث عنه أو بعبارة أشمل "موضوعات العالم " ويتطلب نجاح هذه العملية، اشتراك المرسل والمرسل إليه في السنن، حتى يتم الاسنان والاستئناس على الوجه الأكمل كما أراد له المجتمع اللغوي"³، فأى خطاب يفترض عناصر محددة، لكنها لا تكفي كونها تتطلب شروطا يجب أن تتحقق؛ أبرزها التواضع على لغة واحدة ووجود سنن .

والحديث عن تكون الذهنيات والمعتقدات عند الجزائري يجعلنا نقف عند أبعاده النفسية والاجتماعية والثقافية...، والتي ترتبط غالبا بالجانب الديني عنده، ونجد في هذا الصدد انتشار الكثير من المفاهيم الدينية الخاطئة عند عامة الناس، ومرد ذلك إلى الفهم غير المناسب للخطاب الديني أو التوظيف غير المناسب؛ نتيجة جهل مستعمليه بالقصد للنصوص الدينية أو حتى تعمد ذلك من أجل أغراض شخصية لتغليب الناس، وهنا سنتحدث عن تلقينات للخطاب بدل تلقي؛ والقصور في الفهم في

هذا المستوى الخطابي يؤثر سلبيًا على مجموعة من الأصعدة، وهنا يظهر أن الخطاب الديني محكوم بعناصر رئيسية هي المرسل والرسالة والمتلقي والسياق، وتختلف هذه العناصر من حيث الخصوصية فيه عن الخطابات الأخرى، لذا وجب مراجعة مثل هذه القضايا، التي نراها تتعالق مع **القصد** في الخطاب الديني، وفي هذا الشأن يمتد الاهتمام إلى **المؤسسات التعليمية** التي من شأنها أن تقوم وتقديم المفاهيم الدينية الصحيحة، فالخطاب الديني لم يقتصر على المساجد والمواعظ الدينية التي تلقى هنا وهناك بين محيط الأسرة والإعلام وغيرها، بل يشمل حتى المدرسة بصورة تعليمية؛ والتي سيكون لها الأثر الكبير في هذا الجانب لأنه من المفروض أن تكون الأطر المرسومة لهذا الخطاب ممنهجة وفعالة ومدروسة؛ قصد التكوين المناسب لشخصية التلميذ الدينية، وهذا ما لا يكون في معزل عن التواصل والاستعمال، وهنا نطرح **إشكالية**: ما المقاصد التي يطرحها الخطاب الديني التعليمي في إطاره التواصل والتداولي؟ الأمر الذي سنبحث فيه باتباع المنهج التحليلي، بهدف: التعرف على مقاصد الخطاب الديني في تعليمية التربية الإسلامية في الطور الابتدائي والمتوسط كنموذجين، والتعرف على دور التواصل في تحقيق ذلك، وتجدر الإشارة في هذا المقام أن الخطاب الديني التعليمي ليس مقتصرًا على تعليمية مادة التربية الإسلامية فحسب، بل يمتد أحيانًا إلى تعليميه مواد أخرى خاصة في ما ارتبط بالجانب السلوكي عند المتعلم.

1. الخطاب الديني التعليمي وأبعاده التداولية:

يقوم التواصل البشري على خطابات مختلفة بأبعاد قصدية متعددة؛ وذلك من أجل تبليغ أفكارهم ومقاصدهم للغير، والملاحظ أن المجالات الخطابية تختلف بمجال الاستعمال والميدان، ويعرف الخطاب على أنه "الملفوظ الموجه للغير، بإفهامه قصداً معينا، والآخر الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة"⁴، ومن ذلك فمجرد التلفظ عند البعض يعتبر خطاباً، في حين أن هناك من تجاوز هذه الفكرة إلى أن الخطاب يقابل النص أيما كان شكله، وهناك من اعتبر الكلمة الواحدة خطاباً إن حققت الفائدة والمعنى، على عكس مجموعة من الكلمات (منطوقة أو مكتوبة) لا تتضمن فائدة ولا هدفاً تأثيرياً ولا تبليغياً.

فالخطاب يشتمل على مرسل يهدف للتأثير في مرسل إليه ويحيل على السياق الخارجي في تشكيله، مهما كان نوعه: سياسياً، دينياً، تعليمياً...، ومعالجة الخطاب من منظور التواصل، ليست معالجة للمضمون في حد ذاته، بقدر ما هي معالجة للكيفية

التي قُدم فيها المضمون، فننتقل بذلك مما أراده النص (بعده خطاباً) إلى كيف قال النص مقاله ؟ وفي هذا يرى "توين فان دايك" أن دراسة الخطاب هي "دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقيين في وضعيات حقيقية"⁵.

وعليه وجب توضيح ما نقصد من الخطاب، فلا شك أن الإنسان يمكن له التعبير إما بالنطق (الكلام) وإما بالكتابة، وكل صنف من التعبير له اعتباراته الخاصة، ويمكن أن يكون لنا المضمون نفسه، لكن يختلف معناه بين المحكي والمكتوب، فالتعبير المحكي يكون مرفقاً بنبرة صوت، وعلامات على الوجه والوقف، أو الجلوس، والحركات التي تصاحب الكلام، وهذا الأخير - الكلام - "حدث محدد تحده عناصر معينة، وتؤثر في شكله ومعناه، وقد يكون الكلام متشابهاً ولكنه يحدث أحياناً كلامية مختلفة، لاختلاف عناصره، وعناصر الحدث الكلامي هي: المتكلم، المستمع والعلاقة بينهما، والشفرة اللغوية المستعملة، والمحيط الذي يحدث فيه الكلام، وموضوع الكلام، وشكل الكلام"⁶، هذا ما قد لا يظهر الكثير منه في المكتوب، كما أنّ المتحدث يستطيع التغيير إن لم يحقق هدفه من الخطاب ومقصده؛ لأنه في عملية حوارية مباشرة مع المتلقي.

أما المتلقي للخطاب المكتوب سيكون تلقية قائماً على القراءة، فيكون بذلك تحقيق القصد مرتبطاً بتأويل القارئ وفهمه، إنّ دراسة الخطاب ليس أمراً سهلاً كونه شبكة معقدة يتداخل مع المجتمع وثقافته، فهو إذاً ليس تماماً الجملة ولا هو تماماً النص بل هو فعل يريد أن يقول، فهو كيان خاص بنفسه يختلف عن الجملة وعن النص وكيونته متميزة، وقد عبر عن ذلك "إمل بنفنيست" e.benveniste الذي يرى "أن ما نقف عليه في العالم هو إنسان متكلم يخاطب إنساناً آخر، واللغة ترشد إلى تعريف الإنسان ذاته"⁷، وبين كل هذه المفاهيم فالخطاب ما اشتمل على عناصر تواصلية وحقق الإفادة - مهما كان شكله اللغوي-، ويكون في ميادين متعددة، يشتمل على حمولة معرفية وثقافية، ويرتبط بالسياق اللغوي وغير اللغوي يتضمن حمولة دلالية ومقتضيات للقول؛ من أقوال مضمرة واقتراضات مسبقة - تتعالق مع ظروف ومجريات، وتقتض تلقياً يتباين بتباين مستوياته (منتهى الخطاب).

واعتبار الخطاب الديني يقوم على عناصر تواصلية، يقتضي وجود سنن بين عنصري الخطاب؛ بين المرسل والمرسل إليه، أو بين النص والمتلقي في سياق معين، فالنص من منظور التداولية التي تهتم بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصلية، فهي معنية إذا بالشروط

والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات الموقف الخاص به أي للعلاقة بين النص والسياق"⁸.

فالحديث إذا عن الخطاب من منظور الاستعمال يحيل إلى علم التداولية؛ كونها العلم الذي يشتغل في دراسة هذا الجانب، فهي "تهتم بدراسة اللغة التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن مقصده"⁹.

وقد استفادت التداولية في البداية استفادة مباشرة من الفلسفة، خاصة ما تعلق منها باللغة، وذلك عند انتباه الفلسفة التحليلية إلى ضرورة التخلي عن الجانب الميتافيزيقي، والاهتمام بالجانب التحليلي للغة، عند انشغالهم بالمفاهيم؛ حيث ظهر لهم أن المشكل لا يتعلق بغموضها ولكن بالاستعمال غير المناسب للغة.

وتسعى التداولية إلى الإجابة عن أسئلة رئيسة هي: من يتكلم وإلى من؟ ما مقصدنا أثناء الكلام؟ ما مصدر التشويش والإيضاح؟، وقد ارتبطت التداولية بالذرائعية أو البرغماتية.

إن الخطاب التعليمي له أهمية كبيرة في المؤسسات التربوية- بعده ظاهرة تواصلية - لذلك أقيمت عليه دراسات حديثة؛ ومن شأنه أيضا أن يخرج خطابات أخرى ويخرج منها- في علاقة تأثرية تأثيرية-، ففي " بداية التحليل الفرنسي للخطاب اعتبر الخطاب التعليمي طيلة مدة من الزمن أنه الأمر الثابت الذي ينبغي أن تصاغ بالنسبة إليه مختلف القواعد التي تمكن من بناء سائر الخطابات حوله، لكن سرعان ما تخلي على هذه الفكرة (...) فإن الخطابات التعليمية تنتمي إلى مجموع الخطابات الثانية التي تقدم عادة أنها صادرة على الخطابات الأولى أو الخطابات المنبع"¹⁰، فلا يجب أن يكون الخطاب التعليمي خطابا جزافيا غير مؤسس ، وبذلك فالحديث عن الخطاب التعليمي هو حديث عن خطابات كثيرة ساهمت في بنائه وأقامته من مصادر علمية ومراجع كثيرة .

لقد تعددت بذلك الخطابات التعليمية ومصادرها، ففي المدرسة الجزائرية تحديدا يعود ذلك إلى تعليمية المادة من حيث الخصوصية والمضامين، فالخطاب الذي يتحقق في مادة الرياضيات والعلوم الطبيعية والفيزيائية مثلا؛ ليس هو ما يكون في تعليمية مادة التربية الإسلامية، هذه الأخيرة لها وقعها الخاص في كينونة الفرد وسلوكه؛ لما يعنيه البعد الديني في حياة الإنسان ، كما أن الخطابات الدينية تشمل حتى المواد التعليمية الأخرى - أحيانا - ومثال ذلك اللغة العربية التي تقوم في كثير

من المواضيع بالاستناد على الخطابات الدينية ، وحتى في المعاملات اليومية داخل المؤسسة، ونجد في بعض المؤسسات آيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة مدونة على الجدران وفي لافتات مختلفة، والخطاب الديني التعليمي يمر عبر مراحل تعليمية، كل مرحلة لها خصوصيتها.

يظهر أنّ هناك علاقة وطيدة بين التعليمية والتداولية كونه -كما قلنا - التعليم يبنى على خطابات، وهذا المصطلح - خطاب - أخذ حظا كبيرا من الدراسة وعرف بروزا واضحا في ميدان التداوليات بعد الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص، كما أنّ التداولية من شأنها الكشف عن مقاصد هذه الخطابات.

2. التواصل التعليمي:

عند البحث عن الوظيفة الأساسية للغة يظهر لنا موضوع التواصل كطرح لساني وعرفاني، والذي خُصص له الكثير من الدراسات المتعلقة بعناصره وأساسه وقيوده ومعوقاته...، حيث عرف تطورا مفهوما منذ بدايات الدراسات المتخصصة في هذا المجال والتي " انطلقت في الولايات المتحدة في الأربعينات من القرن العشرين، وقد ساهمت أبحاث متنوعة في اختصاصات محددة (الفيزياء والرياضيات) في بلورة نظرية حول الأنظمة التواصلية"¹¹، ونجد في هذه المرحلة كل من كلود شانون (Claude Shannon) وارين وايفر (Warren Weaver).

وإذا قلنا ما التواصل "فهو أكثر من الجواب الشعبي التقليدي الذي توحى به مجموعة من الاستعارات المتداولة يوميا مثل: أن تضع أفكارك في كلمات، وأن توصل أفكارك إلى الطرف الآخر، وأن تدون أفكارك على الورق وهلمّ جر، فيبدو الأمر كما لو كان التواصل تعليب محتوى يقوم المتلقي بفتح هذه العلبه"¹²، فالمسألة ليست متعلقة بنقل الأفكار فحسب؛ لأننا سنكون أمام ترميزات وتشفيرات لغوية ومعاني لا حرفية، والأفكار التي في ذهن صاحبها، وما يفهم المتلقي قد يكون صورة مقارنة لها وليست نفسها، إن ما يمكن توصيله للمتلقي يأخذ أشكالا متعددة فقد يكون معان، معلومات، قضايا، أفكار، خواطر، معتقدات، توجهات، انفعالات وقد يكون أكثر"¹³، فيختلف الأمر باختلاف المحتوى والسياقات وطرفي التواصل المرسل أو المتكلم والمستقبل، كما تختلف المقامات التواصلية باختلاف الميدان فنجد تواصل بين الأصدقاء، وتواصل رسمي كما هو الشأن في الإدارات، وتواصل تربوي في المدارس والمؤسسات وغير ذلك من النماذج.

يعرف " شارل كولي " (chareles cooley) التواصل بأنه "المكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور، إنه يتضمن كل رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان، ويتضمن أيضا تعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والتلغراف والتلفون، وكل ما يشمله آخر ما تم في الاكتشافات في المكان والزمان"¹⁴، فكينونة التواصل متعلقة مع كينونة الإنسان المعرفية (نقل رموز ذهنية) والوجدانية (تمتين العلاقات الإنسانية) في مراحل حياته ومراحل تطوراتها الاجتماعية التي تنقله عبر الزمان والمكان، وهي كينونة متعالية عن اختزالها في نقل الأفكار، التي تعد جزءا من التواصل وليست منتهاه الكلي، فيكون بذلك وسيلة للتبادل والتبليغ والتأثير، وإذا تحدثنا عنه تبادر إلى ذهننا مجموعة من الأسئلة: ماذا يقال. كيف يقال؟ أين يقال؟ من يقول؟ وكيف يقول؟ من يستمع؟ وكيف هو من يستمع؟ في أي سياق؟ ما لغة القول؟ ما السنن؟ وغيرها من الأسئلة التي يمكن أن نطرحها حول هذا الأمر، ومن ذلك فإن التواصل " عملية رمزية تأويلية تفاعلية سياقية يخلق فيها بشر متعدّدو الثقافة معانيهم المشتركة"¹⁵، والتواصل بمفهومه المجرد يقوم على موضوع وآلية وغانية.

إن التواصل والاتصال من الوسائل الإنسانية الحضارية والاجتماعية وحتى التعليمية، يتم من خلاله تناقل المعلومات والمعارف مشافهة وكتابة، فلا رقي ولا تطور دونه، لذلك فهو يكتسي أهمية كبيرة، تفرض على الدارسين والباحثين النظر إليه تحميصا ودراسة؛ قصد الوقوف عند أهم تجلياته، ومجابهة الصعوبات المتعلقة به واستغلاله بالطريقة الصحيحة المثلى خاصة إن تعلق الأمر بالتواصل التربوي التعليمي، حيث يكون ذا خصوصية خاصة تحمل على عاتقها أهدافا بيداغوجية وتربوية متعددة، ولا شك أن الأمر لا يتصف بالسهولة كون هذه العملية ترتبط بأبعاد مختلفة؛ النفسية والاجتماعية والثقافية.

والتواصل التربوي يقوم على عملية التعلم، وقد قدم "أريان" في معجمه الذي يتناول المصطلحات السيكلوجية ثلاث معانٍ للتعلم وهي¹⁶:

- التعلم عبارة عن عملية اكتساب لقدرة معينة .
 - التعلم عملية تجميع للاستجابات الحركية الأولية في كل حركة يقوم بها الفرد.
 - التعلم هو عملية تثبيت للعناصر في الذاكرة بحيث يمكن استعادتها والتعرف عليها.
- ومن هذا يبرز أهمية التواصل الذي من خلاله يكتسب المتعلم ويتعرف ويستوعب، كما توجد ثلاثة مفاهيم للتعلم أكثر تأثيرا في مجال التعليم وهي¹⁷:

التعلم عملية تذكر ، ويرتبط هذا المفهوم بنظرة "هربارت" إلى الإنسان الذي يولد عقله صفحة بيضاء نكتب فيها ما نشاء عن طريق الاتصال بالآخرين. التعلم كعملية تدريب للعقل: يرتبط هذا المفهوم بالنظرية السيكلوجية التي تدعى بنظرية التدريب الشكلي formal discipline التي تعود إلى الفيلسوف الانجليزي "لوك"، وتقوم على أن العقل مقسم إلى عدد من الملكات مثل التفكير والتذكر والتخيل والتصور.

التعلم كتغيير السلوك: حيث يتم من خلاله تغيير سلوك الفرد عن طريق اتصاله مع ذاته ومع الآخرين وتفاعله معهم مما يؤدي إلى تعديل في السلوك. ومهما اختلفت النظرة للتعلم بين التربويين والنفسانيين والفلاسفة وغيرهم فإن عملية التواصل في هذا الإطار لا مناص منها في كل التوجهات، ومن ذلك فالتواصل التعليمي التربوي أساس لا غنى عنه والذي يسعى المعلم في العملية التعليمية التي تفرض وجود عناصر تواصل تربوي إكساب التلاميذ معارف وسلوكات وخبرات، مع الأخذ بالمتعلم كعنصر مشاركاً في تجليات مفهوم التعليم النشط وأن لا يكون المعلم متسلطاً في تواصله " فإدارة المعلمين لصفوفهم التعليمية تقتل الإبداع، لدى الأطفال خاصة عند سيطرة الحفظ والتلقين على مقاصد المعلم والمتعلمين وتنشأ بيئة تعد أكبر مدعاة لوجود المعلم المتسلط، ويتبع التلقين العقاب والتخويف وإشاعة جو من الاستبداد الفكري الذي يربي طالبا مستبداً أو رجلاً مستبداً"¹⁸.

يتداخل في التواصل التربوي مجموعة من العناصر وهي: المعلم (المرسل) والمتعلم (المتلقي) والمادة الدراسية (الرسالة)، والتفاعلات اللفظية وغير اللفظية والوسائل الديداكتيكية من مناهج ومقررات ...، والأثر أو التغذية الراجعة، ويكون المتعلم هو المحور الرئيس الذي تدور من أجله هذه العملية التعليمية، حيث يسعى المعلم في الإخبار والإيصال والتفاعل لمتعلم قصد تنمية معارفه ومهارته وفهمه.

3. مقاصد وفاعلية تعليمية مادة التربية الإسلامية -الجيل الثاني - :

ينطلق تدريس مادة التربية الإسلامية في المدرسة الجزائرية بحسب ما هو مقرر في المناهج التربوية على أساس المعرفة والسلوك، وتصنف ضمن المجال الاجتماعي؛ والتي تساهم في استكمال نمو وتكوين شخصية المتعلم: عقدياً، وفكرياً، ووجدانياً، وجسدياً، وجمالياً، وخلقياً، وفق الكتاب والسنة، وتبقى هذه الأطر محكومة بكيفية تقديم الدروس والتعامل مع الحالات المختلفة للتلاميذ، ومراعاة مستويات التلقي

والتوظيف المناسب والانطلاق من الوقائع وكيفية مراعاة المكتسبات القبلية للتلاميذ والقدرات، وكل ما من شأنه أن يساهم في إنجاح هذه المحاور التي تنبني عليها تعليمية مادة التربية الإسلامية بكونها خطاباً موجهاً، ويعد التلميذ متلقياً للخطاب الديني التعليمي من خلال كتاب التربية الإسلامية؛ وما يتضمنه من نصوص دينية، أو من خلال ما يقدمه الأستاذ في القسم ويلقيه بصفة عامة.

وأول ما نقف عنده في تعليمية مادة التربية الإسلامية هو تسمية المادة؛ ففي الطور الثانوي نجدها تنتقل إلى تسمية العلوم الإسلامية، بصورة تعبر ضمناً على أن التلميذ في الطور المتوسط والابتدائي يحقق تربية دينية قبل التحصيل الفقهي والمعرفي المعمق، ولذلك يكون البعد القصدي من تسمية المادة التعليمية هو قصدياً سلوكية أخلاقية تربوية، توجه التلميذ نحو المسلك الصحيح في تصرفاته وتعاملاته انطلاقاً من مكتسباته في إطار تعليمية مادة التربية الإسلامية، فنجد بأن هناك ترابط بين المرحلة الابتدائية والتعليم المتوسط؛ نتيجة الاشتراك في تسمية المادة والهدف منها.

1.3- مقاصد المنهاج في تعليمية مادة التربية الإسلامية:

أ- في التعليم الابتدائي: تقدم تعليمية مادة التربية الإسلامية في مناهج الطور الابتدائي على أنها تلك التربية المنبثقة من الدين الحنيف، والموجه لتنمية استعدادات المتعلم الفطرية في المجالات الفكرية والروحية والخلقية والاجتماعية تماشياً وخصائص نموه العقلي والنفسي في كل مستوياته، وتنشئته تنشئة إسلامية قائمة على مبادئ العقيدة الصحيحة والسلوك القويم والأخلاق الحسنة¹⁹.

كما تهدف إلى تحقيق مقاصد أخرى في المتعلم بحيث: " ينشأ على أداء واجباته نحو الله ونحو نفسه وأسرته، ومجتمعه ووطنه ولا يتحقق ذلك إلى بزور الأخلاق ورعايتها"²⁰، الأمر الذي سطر له المنهاج -الابتدائي- مجموعة من النقاط التي تحقق ذلك في تعليمية هذه المادة، فلا يكون ذلك دون²¹:

- الفهم الجيد للنصوص الشرعية المقررة.
- تنمية شعور الانتماء إلى الإسلام والاعتزاز بثوابت الوطن.
- تزويد المعارف الخاصة ببعض الشعائر الدينية وتعويده على ممارستها.
- تعويده على ممارسة بعض الآداب والقواعد المنظمة للعلاقات الاجتماعية، وضوابط التفاعل الايجابي مع المحيط.
- حفظ صحته الجسدية والنفسية، والتوازن في الشخصية واحترام الذات والتفتح على الغير.

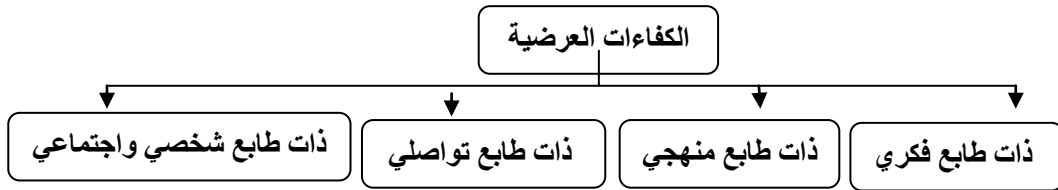
تعليمية مادة التربية الإسلامية وفاعلية الخطاب الديني

ومن خلال هذا يظهر بأن تعليمية مادة التربية الإسلامية تحمل على عاتقها دورا كبيرا؛ خاصة بالنظر إلى الفئة العمرية التي تسعى إلى تحقيق ذلك فيها -الطفولة-، حيث يكون المتعلم في بداية مسيرته الدراسية، والحق بأن ذلك إن تحقق سيجعل من العملية ناجحةً وفعالةً، لكن قصدية المادة من خلال ما هو وارد في المنهاج مرهونة بعدة عناصر والتي نراها في رأينا تتمثل في:

- العناية بالجانب النفسي للطفل (المتعلم)، وكذلك الصحة الجسدية.
- القدرة والمهارة في التواصل من قبل المعلم مع هذه الفئة.
- العناية بالتغذية الراجعة عن المتعلم.
- القيام بعملية التقويم باستمرار وفي كل مرحلة.
- عدم إهمال الجانب الترفيهي وحسن التقديم واستعمال المحفزات المختلفة في التعلم.
- تنمية قدرات المتعلم التواصلية.
- توفير ظروف مريحة وأقسام محفزة من خلال " الديكور " والوسائل.

ويقدم المنهاج المدرسي الابتدائي ملامح تخرج يسعى إلى تحقيقها قبل دخول المتعلم إلى مرحلة تعليمية جديدة -التعليم المتوسط- والتي من أهمها²²:

- التأسيس الوطني والتفتح على العالم: التعرف على المعالم الوطنية وترسيخ الشعور بالانتماء الحضاري الوطني والاعتزاز بالإسلام...
- تطوير الجانب المعرفي: الرصيد اللغوي، الأحكام، المواعظ، الأخلاق، الخطاب الديني...
- تحقيق كفاءات عرضية أخرى: من خلال تعليمية المادة والتي نوضحها في ما يلي²³.



حيث يحقق من الأولى قدرة في التفكير المنطقي والتحليل...، ومن الثانية القدرة على التنظيم والتخطيط والاستخدام، ومن الثالثة وهي الحلقة الأهم التي لن

يتحقق شيء دونها - التواصل- وذلك من خلال إحسان التعبير واحترام آداب التواصل والقدرة عليه، والأخيرة تتجسد في تفعاله وتعامله مع المجتمع والمحيط. وتقسم الدروس المقررة على التلميذ في مرحلته الابتدائية إلى مجموعة من الميادين؛ التي تكون في²⁴:

- القرآن والحديث الشريف (بحكم أنه الأساس الديني الذي لا غنى عنه)
 - مبادئ أولية في العقيدة والعبادات (وهي مبادئ مستوحاة من القرآن والسنة)
 - تهذيب السلوك وزرع الأخلاق الحسنة (قصد ترسيخها في المتعلم)
 - مبادئ أولية في السيرة النبوية (قصد التعرف عليها والافتداء بها)
 - مبادئ أولية في قصص الأنبياء (قصد التعرف والافتداء و أخذ العبر)
- يأخذ الجيل الثاني الذي قدمته وزارة التربية بعدا ايجابيا في الأساس الذي يقوم عليه، فمن خلال الكفاءات التي يريد أن يثبتها المنهاج في بناء الدروس؛ من وضعية الانطلاق إلى الوضعية الختامية، نجد أنها تطرح مجموعة من المصطلحات التي نرتبها كالتالي:

التواصل ← التفاعل ← الممارسة ← الاكتساب ← الاستعمال.

حيث يبدأ المعلم درسه بخطاب تواصل (وضعية الانطلاق) التي يجب أن تكون مناسبة ومحفزة، ليتحقق بعد ذلك التفاعل لدى المتعلمين مع الموضوع المطروح، مع ممارسته صفا قصد الاكتساب، ليستعمله في الأخير في حياته اليومية. ومن هنا تبرز إشكالية القصد التواصل وكيفية تحققه بين المعلم والمتعلم؛ بحيث يجب أن يقوم على سياقات مناسبة؛ يراعي فيها المعلم مستويات التلقي عند متعلميه لتحقيق القصد المناسب انطلاقا من مقومات المادة القائمة على مصادر الشريعة الإسلامية.

وبالاطلاع على كتاب التربية الإسلامية الموجه لتلاميذ السنة الرابعة ابتدائي²⁵ -على سبيل المثال- نجد أنّ المواضيع المطروحة تقوم على معارف فقهية بسيطة تخص الإنسان المسلم في أول استعداداته لممارسة شعائر دينية إسلامية؛ كموضوع الإيمان بالرسول، والحديث عن بعض الأنبياء؛ مثل يونس، والصحابة مثل أبي بكر الصديق، قصد التعرف عليهم وأخذ الأسوة من بعض مواقفهم.

والملاحظ أنه توجه للمتعلم بصفته (منتهى الخطاب) بعد السند الذي يقدم لهم في دروسهم خلاصة تكون إما بعنوان " تعلمت " أو " أفتدي وأمارس"، فموضوع الدرس الأول المقدم مثلا هو: سورة العلق التي يحاول منها الكتاب تبيان أهمية العلم، والملاحظ أيضا أنه عند تقديم هذه النصوص الدينية يكون المتعلم مطالبا بحفظها

وترتيلها، وإن كان الأمر الثاني طلبا ضمنا بحكم أن المتعلم لم توجه له دروس في المقرر والمنهاج تعلمه كيفية ترتيل القرآن أو تجوديه بل هو تدريب على النطق؛ وهكذا يحرك المعلم ويوجه الخطاب الذي يقدم للتلاميذ، فمن واجبه أن يحسن الترتيل؛ ليكون البعد القصدي من حفظ ورتل بعدا اقتدائيا لترتيل المعلم، وحتى حفظه عن طريق قراءته للنصوص الدينية دون الإطلاع على الكتاب المدرسي؛ بحكم أنها نصوص قصيرة، فيرسخ المعلم في ذهن المتعلم فكرة الحفظ كأداء واقتداء وكذلك الترتيل، أو على الأقل الإخراج السليم للحروف، ومن هنا يكون المقام الخطابي الذي تضعه مادة التربية الإسلامية لمتعلمي السنة الرابعة ابتدائي حاملا لمقاصد مختلفة تتحقق بصورة أكثر نفعاً عندما يؤدي المعلم دوره التواصلية والتعليمية بشكل مناسب، كما نلاحظ أن الدروس تشتمل على مجموعة من الأنشطة التطبيقية التي تستعمل الجانب السيميائي لإثارة المتعلم، كاستعمال الألوان أثناء المطالبة بالإجابة " لون"، واستعمال بعض الصور التي تأخذ طابع الرسوم المتحركة، ومن ذلك يسعى الكتاب لإثارة المتعلم بطرق تجذبه أكثر نحو المواضيع، وإن كانت هذه الصور في حد ذاتها تحتاج إلى دراسة سيميائية في مدى تأثيرها وتناسبها.

وهكذا يكتسب المتعلم سلوكيات ومعارف دينية مختلفة، وإن كنا نرى بأن خصوصية المتعلم في هذه المرحلة تحتاج إلى أنشطة تطبيقية أدائية أكثر من الكتابية، فبدل أن يُعلم المتعلم الموضوع -مثلا- من نص، يعلمه بأنشطة تطبيقية تكون أكثر فاعلية وحماسية من الكتاب المدرسي، لذا يكون المعلم مطالباً بالتطبيق قبل فتح الكتاب أحيانا.

ومن ذلك أيضا نجد تكامل كتاب التربية الإسلامية في السنة الخامسة ابتدائي²⁶ في الميادين والأنشطة، ويختلف في المواضيع، فيكون بذلك القصد العام من هذه المرحلة؛ المتمثل في ملمح الخروج قد تحقق، والذي يتكامل أيضا مع تعليمية المواد الأخرى

إنّ تعليمية مادة التربية الإسلامية في المرحلة الابتدائية إن تمكنت من تحقيق مقاصدها المسطرة وكفاءاتها المستهدفة في الميادين التي تطرحها والمواضيع التي تندرج تحتها؛ ستجعل ملمح الخروج ناجعا مهيبا للمتعلم من أجل الانتقال إلى التعليم المتوسط لتعزيب معارفه أكثر وانفتاحه على الخطاب الديني بشكل أوسع في تكامل وتناسق.

ب- التعليم المتوسط:

تنطلق تعليمية المادة في الطور المتوسط من ميادين محددة؛ والتي نجدها متقاربة مع ميادين التعليم الابتدائي، ومن ذلك فطور التعليم الابتدائي والمتوسط لا يشترك في تسمية المادة التعليمية فحسب بل حتى في الميادين التي يطرحها كل طور، وهي ميادين متعلقة بـ: القرآن والحديث، أسس العقيدة الإسلامية، العبادات، تهذيب السلوك (الأخلاق والآداب)، السيرة النبوية والقصص²⁷، ومن هذا فنظام الجيل الثاني يشهد امتدادا منهجيا بين التعليم الابتدائي والمتوسط، والملاحظ أن كل الكتب المقدمة في المرحلتين تبدأ بميدان القرآن الكريم والحديث الشريف عكس ما كان واردا في الجيل الأول التي تجعلها في الأخير بدلالة تجعل من النص الأصلي هو الأساس الذي يجب أن تنبني عليه الدروس.

هناك توافق كبير بين ما هو موضوع في منهاج المرحلة الابتدائية فيما تعلق بتعليمية مادة التربية الإسلامية مع ما هو كائن في ذات المنهاج في مرحلة التعليم المتوسط، وذلك تحت لحاف جامع يتمثل في الوظائف التي تهدف المدرسة الجزائرية إلى تكريسها والمتمثلة في:²⁸

- **وظيفة تعليمية تربوية:** (ضمان للمتعلم تعليما ذا نوعية يحقق العدالة، التثقيف قصد إدماجهم في المجتمع، اكتساب معارف في مختلف المواد....)
- **وظيفة التنشئة الاجتماعية:** (تربية التلميذ على حفظ القيم الروحية والأخلاقية والمدنية للمجتمع الجزائري، وقواعد الحياة في المجتمع بالتعاون مع الأسرة).
- **وظيفية تأهيلية:** (توفير المعارف والكفاءات الأساسية للمتعلمين التي تمكنهم من استثمار معارفهم ومهارتهم، والتكيف مع المجتمع.....).

ويحاول المنهاج أن يوظف لعملية تعليمية متكاملة تتحقق فيها كفاءة عرضية - التداخل بين المواد- فنجد أن هناك علاقة متجذرة بين بعض المواد مع تعليمية مادة التربية الإسلامية؛ على غرار مادة اللغة العربية والتربية البدنية والتاريخ والجغرافيا، ومرد ذلك أن المنهاج يعرض تعليمية مادة التربية الإسلامية على أنها " ليست معارف تحفظ لتستظهر في المواقف والمناسبات الدينية فحسب، ولا هي عبارة عن مفاهيم دينية يجب أن تستوعب لتفي بغرض التعليم في المدرسة فقط، ولا هي سلوكيات آلية يكتسبها الفرد بالممارسة اليومية فقط بل هي كل ذلك، وبالأحرى هي التربية الموجهة لتمنية استعدادات المتعلم الفطرية في المجالات الفكرية والروحية والخلقية والاجتماعية والسلوكية تماشيا مع خصائص نموه وتنشئته تنشئة قائمة على مبادئ

سليمة وسلوك قويم²⁹ ولتحقيق هذه المقاصد يستدعي وجود تكامل منهجي ومعرفي مع باقي المواد التعليمية، والتشارك في تحقيق ملمح شامل حيث "تسهم التربية الإسلامية في تكوين شخصية المتعلم على حب وطنه، والاعتزاز بالانتماء إليه والتمسك بثوابت أمته، كما تسهم في إثراء رصيده اللغوي، وتنمية ذوقه الفني والجمالي، من خلال ما يتعلمه من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف"³⁰، علاوة على ذلك فالدين هو اللبنة التي ننطلق منها في تعليمية المادة الأمر الذي يحيل إلى وجود مقاصد أخرى تتمثل في:³¹

- إعداد المتعلم للقيام بواجبه أمام الله، ونحو نفسه وأسرته ومجتمعه.
- تحصينه باكتساب المفاهيم الصحيحة للإسلام كدين سلم وسلام، ودين وسطية وتسامح وحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، دين حقوق الإنسان، والقيم الإنسانية العليا، دين التفتح على الغير والتعايش.

لكن كل هذه المقاصد يمكن أن تبقى حبرا على ورق إن لم تكون الطرق المؤدية إليها آدائيا -صفيا- سليمة، مع توافر جملة من الشروط كنا قد أشرنا إليها سابقا، فالمتعلم فرد من مجتمع؛ له افتراضات سابقة وظروف محيطة، وسياقات يتشاكل فيها الخطاب الديني عنده؛ الذي يحتضن تعليمية مادة التربية الإسلامية.

يقدم المحتوى التعليمي لمادة التربية الإسلامية من طرف معلم على شكل رسالة تواصلية إلى المتعلم بصفته منتهى الخطاب؛ الذي يتحقق عنده قصد ما في حيز زمكاني، بوسائل متعددة في سياقات مختلفة.

الأمر الذي يجعل من الإستراتيجية الخطابية المتعبة تحدث فارقا في التحصيل وتحقيق كل تلك المقاصد التي سطرها المنهاج، ومن هذا المنطلق وجب العناية بالمقاصد التي يضعها المنهاج والكتاب المدرسي والمقاصد الخطابية التي يُحدثها المعلم في المتعلم أثناء التواصل "فالقصد موجود في كل لحظة من لحظات استعمال اللغة، قصد لفائدة معينة طبقا لسنن المواضع العامة في جهاز اللغة، مع تكريس مظهر من مظاهرها العملية في الممارسة"³²، والعناية بالمقاصد هي عناية بالغة كنسق وكسياق، لذلك فالقصدية intentionality من أهم ما يجب الاهتمام به هذا المجال.

الخاتمة:

نخلص في الأخير إلى:

- تطرح تعليمية مادة التربية الإسلامية مقاصدَ معرفيةً وسلوكيةً؛ فهي تسعى إلى تنمية المعارف الدينية عند المتعلم كما تسعى إلى تقويم سلوكياته من خلال ترسيخ القيم الإسلامية السمحة والأخلاق الفاضلة فيه .
- إنَّ نجاح تعليمية مادة التربية الإسلامية متعلق بنجاح العملية التواصلية، وأنه كل ما كانت المقاصد مدروسة ومناسبة على مستوى المعلم ومستوى المحتوى ومستوى المتعلم كانت الدورة التواصلية محققة للغاية المنشودة منها.
- يعتبر المتعلم بوصفه منتهى الخطاب الحلقة الأهم في العملية التعليمية؛ ومن هذا وجب النظر إليه من جانبيين؛ الجانب الأول: هو ما يجب أن نقدمه له من خلال تعليمية مادة التربية الإسلامية وبناء الاستراتيجية الخطابية المناسبة في ذلك، والجانب الثاني: النظر إلى مدى تحقق الكفاءة المستهدفة عنده عن طريق ما يصطلح عليه بالتغذية الراجعة التي نلمسها في ردود أفعاله اللغوية وغير اللغوية؛ من أجل تقويم تحصيله وتشخيصه.
- ضرورة العناية بالمنهجية عند المعلم، والانتباه للقضايا الخارج صافية التي من شأنها التأثير على تحصيل المتعلم بحكم أنه يعيش في وسط اجتماعي وأسري أخذ منه مفاهيم دينية متعددة.
- كما نخلص إلا أنّ علم التداولية من شأنه أن يسهم في تطوير التعليمية بصفة عامة وينجح تعليمية مادة التربية الإسلامية بصفة خاصة؛ بالارتكاز على أهم ما تطرحه في هذا الشأن كأداة للنظر والتقويم، فالتعليم يقوم على التواصل والتفاعل بين المعلم والمتعلم، ومن ذلك وجب الاهتمام بقضية الاستعمالات اللغوية وما تعلق بها من سياقات ومقتضيات مختلفة، وعندما نقول الاستعمالات اللغوية فنحن لا نعني اللغة بصورة بنيوية مجردة بل بالعكس تماماً، فالاهتمام بالاستعمال هو الاهتمام باللغة و بما هو خارج اللغة.

الهوامش:

- 1- مصطفى بيومي عبد السلام، دوائر الاختلاف قراءات في التراث النقدي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ط1، 2007، ص48.
- 2- ينظر: محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، أفريقيا الشرق، المغرب، 2016، ص 24/23.
- 3- عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1، 2010، ص 47.
- 4- الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، درا الكتاب الجديد، ليبيا، ط1، 2004، ص 37.
- 5- باتريك شار دو، دومنيك منغو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سينترا، تونس، 2008، ص 44.
- 6- عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 2004، ص 31.
- 7- صابر حباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار، سورية، ط1، 2010، ص 136.
- 8- خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008، ص 28.
- 9- ج، بروان، ج سيرل، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التركي، جامعة الملك سعود للنشر، السعودية، 1997، ص32.
- 10- ينظر: المرجع نفسه، ص 177/178.
- 11- عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، دار الحوار، سوريا، ط1، 2003، ص23.
- 12- ينظر: دان سبيربر، ديدري ولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت- لبنان، ط1، 2016، ص19.
- 13- ينظر: المرجع السابق، ص20.
- 14- جميل حمداوي، التواصل اللساني والسميائي والتربوي، دار الألوكة، مصر، ط1، 2015، ص10.
- 15- عماد عبد اللطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة مصر، ط1، 2012، ص123.
- 16- ينظر: عمر عبد الرحيم نصر الله، مبادئ الاتصال التربوي والإنساني، دار وائل للنشر، عمان -الأردن، ط1، 2001، ص97.
- 17- ينظر: المرجع نفسه، ص 98.
- 18- عقيل محمد رفاعي، التعلم النشط، المفهوم والاستراتيجيات، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية-مصر، 2012، ص16.

- 19- ينظر: الوثيقة المرافقة لمنهاج التربية الإسلامية، مرحلة التعليم الابتدائي، وزارة التربية الوطنية الجزائرية، 2016، ص2.
- 20- اللجنة الوطنية للمناهج، منهاج مرحلة التعليم الابتدائي، وزارة التربية الوطنية، 2016، ص79.
- 21- ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 22- الوثيقة المرافقة لمنهاج التربية الإسلامية، مرحلة التعليم الابتدائي، ص 2.
- 23- اللجنة الوطنية للمناهج، منهاج مرحلة التعليم الابتدائي، ص 83.
- 24- تنظر: الوثيقة المرافقة لمنهاج التربية الإسلامية، مرحلة التعليم الابتدائي، ص ص 5، 6.
- 25- كتاب التربية الإسلامية، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2018، 2019.
- 26- ينظر: كتاب التربية الإسلامية، السنة الخامسة من التعليم الإبتدائي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، ط1، 2019، 2020.
- 27- ينظر: منهاج مرحلة التعليم المتوسط، اللجنة الوطنية للمناهج، وزارة التربية الوطنية، مارس 2016، ص207.208.
- 28- ينظر: المرجع نفسه، ص4.
- 29- المرجع نفسه، ص 191.
- 30- ينظر: المرجع نفسه، ص 192.
- 31- المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- 32- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986، ص 145.